

المحاضرة الثالثة :

المرحلة الثالثة : مرحلة تطور المدارس الكلامية واختلاطها بالفلسفة .

الآن وقد انتهينا من استعراض أهم مرحلة في تاريخ المدارس الكلامية، وتلك التي نضجت واستقرت فيها مدارسه الكبرى ، نود أن نعرض بإيجاز شديد - تفرضه بعض الاعتبارات - لاهم التطورات فيما يلي ذلك من مراحل ، ابتداء من القرن السادس الهجري تقريباً حتى الوقت الحاضر ، مكتفين برصد الظواهر العامة .

واليكم أبرز الظواهر في المرحلة الثالثة التي تلت مرحلة الازدهار والنضوج ، والتي يمكن أن يقال انها تشمل القرن السادس الهجري وما بعده حتى نهاية التاسع^(١).

ومن ظواهر هذه الفترة فيما يتعلق بتطور المدارس الكلامية^(٢) :

١. اختفاء المعتزلة تقريباً كفرقة كلامية متميزة مؤثرة إلا من أفراد عرفوا بالاعتزال ، وإن كانت لهم بعض الانتماءات الأخرى أيضاً كابن بدران في نيسابور وابن ابي الحديد في بغداد وبعض المتكلمين في بلاد ما وراء النهر . ولكن منهاج المعتزلة وأفكارهم قد تسربت في الحقيقة إلى الفرق الكلامية الأخرى وخاصة الزيدية والاثنا عشرية والاشاعرة .

٢. انتقال مركز البحث في المذهب الماتريدي من منشئه فيما وراء النهر إلى خراسان وشبه القارة الهندية وإلى اسيا الصغرى ؛ إذ عضد العلماء الأحناف في هذه المناطق ذلك المذهب وانتجوا فيه الكثير .

٣. سيطر الأشاعرة تقريباً تبعاً لظروف مواتية لهم على أكثر مناطق العالم الإسلامي، ومنها العالم العربي وفارس ،ومن هذه المنطقة الاخيرة خرج أكثر المتكلمين الذين مازالوا يؤثرون بانتاجهم على الفكر الأشعري في الأزهر وغيرها من الجامعات الدينية حتى اليوم. كالبيضاوي ،والرازي والايحي والتفتازاني والجرجاني والدواني وغيرهم .

٤. استمر الفكر الزيدي على تقاليد الاصلية ،وانقضت النزعات المتطرفة منه ، وامتزج بتراث المعتزلة مع وجود تيار محافظ أقرب الى روح السلف ، وبلغ الاسماعيليون النزاريون أقصى مراحل التطرف في اتجاه الفلسفة الباطنية التي اعتنقتها الفرقة منذ البداية فأعلنوا " القيامة الكبرى" في عام ٥٥٩هـ على يد الحسن الثاني - أحد خلفاء الحسن بن صباح في " ألموت" بما يتضمنه هذا الاعلان من نسخ الأحكام الظاهرية للشريعة الإسلامية تماماً بعد أن كانوا فيما سبق يظهرون التشبث بالظاهر والباطن معاً .

(١)المدخل إلى دراسة علم الكلام (ص١٠٧)

(٢)المدخل إلى دراسة علم الكلام (ص١١٠-١١٣)

٥. انقرضت فئات الخوارج جميعاً ، ولم يبق إلا الإباضية الذين عاشوا في عمان وشمال افريقية وكانت لهم دويلات هناك ، واقتربوا من أهل السنة في الاصول العقائدية وفي الاجتهاد الفقهي الى حد ما ، مع اعتدادهم بالاستقلال المذهبي عن الفرق الأخرى .

٦. نضج الكلام الاثناعشري على يد الطوسي وتلاميذه ونهض في هذه الفترة نهوضاً واضحاً ، وكانت له صراعات ومساجلات فكرية مع الفكر السني خاصة الأشاعرة والحنابلة ، ولكن ظلت العلاقات الفكرية بين هذه المذاهب قائمة ، ويكفي ان نعرف أعظم الشروح الثلاثة التي كتب على " تجريد الاعتقاد " للطوسي الاثناعشري كان أحدها لتلميذه الشيعي الحسن بن يوسف الحلبي والاخران لسنين بارزين أحدهما القوشجي في ما وراء النهر والآخر هو الأصفهاني في مصر ، وقام بالتعليق عليه بعض شيوخ الأزهر البارزين أيضاً .

٧. كانت المرحلة النقدية التي أثارها ابن تيمية في الكلام السني من ابرز أحداث هذه الفترة ، موجهاً نقده في مواجهة الخلط المسرف للكلام بالفلسفة ، واستسلام الأشاعرة للمناهج الاعتزالية ، وقد قام تلاميذه على هذا الفكر في المراحل التالية .

٨. بدأت طريقة المتون والشروح ، وما يقوم عليها من حواشٍ وتقارير في هذه الفترة ، وتبارى في ذلك المؤلفون من شيعة وسنيين ، فمن ذلك ما كان بين جلال الدين الدواني الأشعري وقطب الدين الشيرازي الشيعي من التنافس في شرح " التجريد" فيما عرف بالحواشي القديمة والجديدة والأجد ، وأبرز المتون والشروح كمواقف الايجي وشرحها ، ومقاصد التفتازاني وشرحها ، وعقائد العنصر وشرحها ، والتجريد وشرحها هي من نتاج هذه الفترة .

المرحلة الرابعة: مرحلة جمود وتفوق المدارس الكلامية

اما المرحلة الرابعة فقد غلب عليها الفتور والتقليد والاكتفاء بإعادة العرض واجترار الماضي ، فكان جل نتاجها شرحاً أو تلخيصاً أو نقداً لمؤلفات السابقين في غالب الأمر ، وقد ران هذا الجمود والتفوق على الفكر الاسلامي بوجه عام خلال القرنين العاشر والحادي عشر وأكثر الثاني عشر حتى ظهرت في المياه الراكدة هزة جديدة ولدت المرحلة الحديثة التالية ، وأبرز سمات المرحلة

الرابعة ما يلي^(٣) :

١. سيادة أسلوب الحواشي والتقارير الملحقة بالمتون القديمة وشروحها على المؤلفات الكلامية واساطين هذا الأسلوب من امثال ميرزا خان ،والسيالكوتي ، والخيالي ،والعصام وامثالهم في الأوساط السننية ،والخفري والششتري والبخشى والدشتكي وأمثالهم عند الشيعة ،هم من رجال هذه الفترة ، الذين ما تزال تدرس حواشيمهم في الجامعات الدينية حتى اليوم .
٢. استقرار المدرسة الاشعرية في مصر وافريقيا والعالم العربي، التي كادت مع الاتنا عشرية تستقطب النفوذ والهيمنة على الدوائر الكلامية في العالم الإسلامي ،بجانب النزعة الماتريديية في تركيا وشبه القارة الهندية ، وسيادة الاتنا عشرية على ايران بعد أن كانت مقرا خصبا للفكر الأشعري السنني ، وإن لم يخل الامر من اتصالات فكرية بين اصحاب هذه المدارس كما في أمثال بهاء الدين العاملي ولكنها حالات نادرة بالقياس إلى ما سبق في المرحلة الماضية .
٣. زاد التقارب بين علم الكلام والتصوف الذي بدت بوادره في المرحلة السابقة أو قبلها ، حتى صار متكلمو هذه الفترة لا يجدون بأساً - احيانا- في أن يلحقوا بمؤلفاتهم في الكلام فصولا صوفية الامر الذي أستمر في المرحلة التالية أيضا ،لكن التصوف الذي كان رائجا في العالم الاسلامي حينذاك سواء على مستوى الفكر او مستوى العمل ، لم يكن إلا عاملا من عوامل الخمول والتفوق للأسف الشديد .
٤. شهدت المدرسة الماتريديية قدرا من الحركة والنشاط بحكم عناية الخلفاء الاتراك بهذا المذهب ، وإن كان من الملحوظ أنهم لم ينشؤا مدارس خاصة لتدريس العقيدة الاسلامية الماتريديية كما فعل غيرهم من الحكام في مصر والشرق بالنسبة للمذهب الأشعري ،وبرزت في هذه الفترة أسماء الكفوي والكلبيوي والقسطلاني وملا علي القاري وكثير غيرهم .

المرحلة الخامسة والأخيرة : الفكر الحديث للمدارس الكلامية

يبدأ الفكر الحديث ، بوجه عام ، مع طلع القرن السادس عشر أو السابع عشر الميلاديين ، لكن في حالتنا يتأخر إلى منتصف الثامن عشر أي الثاني عشر الهجري ، وذلك بسبب ما ران على العقل الاسلامي والحياة الاسلامية من جمود وخمول وتفوق ، بينما كان الفكر والحياة الغربيان يتطوران بايقاع شديد ومتسارع منذ عصر النهضة مما هيا للقوم أن ينتزعوا زمام القيادة العالمية بعد

(٣) المدخل إلى دراسة علم الكلام (ص ١١٤-١١٦ بتصرف)

أن بقي في يد المسلمين قرناً عديدة ، بل أن يحكموا الحصار على العالم الإسلامي نفسه ، ويحتلوا معظم أجزائه عسكرياً ، ويفرضوا عليه - بأساليب متنوعة - فكرهم وأنظمتهم كما ألمحنا في نهاية الفقرة السابقة^(٤) .

ولكن الهجمة الغربية لم تكن هي العامل الوحيد لتحريك الأوضاع الثقافية والفكرية الغافية ، فقد قامت حركات النهضة الحديثة بعوامل ذاتية دفعت العقل المسلم الى أن يتامل من واقعه البائس العقيم ، ويستوحي ماضيه العظيم ، كما نجده عند السنوسي والمهدي والشوكاني والقاسمي وابن باديس وولي الله الدهلوي والافغاني ومحمد عبده وغيرهم من الدعاة والمفكرين المعاصرين^(٥) .

وسنحاول فيما يلي رصد الظواهر البارزة في هذه المرحلة^(٦) :

١. ازدهار الفكر الحنبلي والاتجاه السلفي وخاصة بعد قيام الدولة السعودية على تراث محمد بن عبد الوهاب ، وعاد فكر بن تيمية يمارس دوره لعله لم يتهاى له من قبل في العالم الإسلامي .
٢. استمر الاستقطاب المذهبي بين الاثنا عشرية التي سيطرت على فارس ، والمذاهب السنية التي تقاسمت المناطق السنية من العالم الإسلامي : وأولها الأشعرية التي حافظت على نفوذها بفضل الأزهريين ، والمازندية التي أفادت من نفوذ العثمانيين وبجهود العلماء في شبه القارة الهندية، ثم النزعة السلفية الفتنية التي انبثقت من التراث الحنبلي ، هذا مع بقاء طوائف الإباضية والزيدية والاسماعيلية في معاقلم من أطراف الجزيرة وثور الهند وجبال المغرب العربي .
٣. أدى التفاعل الثقافي الجديد، والنفوذ الغربي ، والمواريث الباطنية لغلاة الشيعة ومتطرفي الاسماعيلية وصوفية وحدة الوجود الى ظهور أديان جديدة منشقة عن الإسلام في جناحه الشيعي كالبايية والبهائية في فارس ، وفي جناحه السني كالكاديانية في الهند .
٤. أدى الصراع الفكري الذي نشأ خلال هذه الفترة بفعل الثقافة الغربية الوافدة، وما جاء في ركابها من منهج وضعي في التفكير ، ونظرة علمانية الى شؤون المجتمع والدولة ، وتبشير بالدين المسيحي ، ومزاحمة التعليم الديني التقليدي بأخر مدني غربي النزعة والروح ، أدى كل ذلك إلى ظهور ردود فعل متباينة تتراوح بين الخضوع النسبي ومحاولة عرض المواريث الإسلامية بأسلوب دفاعي انهزامي، أو الرفض المطلق والتجنب الحذر من الاوساط المحافظة ، ومحاولة استيعاب العناصر الصالحة من الفكر الغربي الوافد ورفض الفاسد منها في نظرة نقدية تحاول ان تتحرر من الثقافة الغربية . وقد حاول كثير من المفكرين مواجهة ذلك من امثال الافغاني الذي واجه اللوثة المادية في الشرق بكتابه " الرد على الدهرية " ومحمد عبد الذي كتب في الرد على بعض

(٤) المدخل إلى دراسة علم الكلام (ص ١١٦- ١١٧)

(٥) المدخل إلى دراسة علم الكلام (ص ١١٧)

(٦) المدخل إلى دراسة علم الكلام (ص ١١٧- ١٢٠ بتصرف)

المستشرقين كتابه "الاسلام والنصرانية أمام العلم والمدنية" والسيد أحمد خان حاول تفسير القرآن بما يوافق الافكار الوضعية الجديدة ، ومحمد اقبال الذي حاول تجديد الفكر الديني في الاسلام ولم يسلم كغيره من التأثير بالقيم الجديدة الناجمة عن " نظرية التطور" وغيرها . ولا يزال هذا الصراع هو القضية الأولى للحياة الإسلامية فكريا وعمليا حتى الوقت الحاضر، كما يقره أكثر المفكرين المسلمين .

٥. مال بعض المفكرين الى نزعة عقلية اعتزالية في مواجهة تلك القضايا والصراعات المحتملة ، ويمكن أن يذكر في هذا الصدد الأفغاني والشيخ محمد عبده ومدرستهما ، كما يعترف أنصارهما بذلك قبل الخصوم .

٦. بقي الفكر الماتريدي في الساحة وقد مثله العالم التركي المتشبث بهذا المذهب مع تمكن في العلوم الاسلامية أعني الشيخ محمد زاهد الكوثري ، وبعض علماء شبه القارة الهندية من امثال الشيخ النعماني الذي يعد امتدادا معاصرا للشيخ ولي الله الدهلوي ويجمع في شخصه ،مثل الشيخ مصطفى صبري، مؤثرات ماتريديية واخرى اشعرية في الوقت نفسه .

٧. لم تكن التطورات الجديدة خالية من الخير ، فإن قيام الجامعات المدنية بأقسامها العلمية ، ومناهجها المتطورة أدى الى حركة تجديد وإحياء للتراث الاسلامي . وكشف عن الحلقات المفقودة من تاريخنا الفكري ، ولعل ما تحظى به الحياة الاسلامية المعاصرة من حيوية ونهضة يرجع الى التأثير الرشيد لهذه المؤسسات ، بجانب معقل الفكر الاسلامي الاصيل وهو الازهر الشريف ودوره في النهضة الحاضرة لعلم الكلام أساسي ورائد كما تعكسه الفصول السابقة .